ذلك من أن يتبع وأن ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا
يمنعه من ذلك واستأذن رجل عمر رضي الله عنه في أن يعظ الناس فمنعه فقال أتمنعني من نصح الناس
فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق والقضاء
والخلافة مما يحتاج الناس إليهما في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة
ولذة فلا فرق بينهما وأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهي
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى
طلبه وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الناس وقيدوا بالقيود عن
طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لكسروا القيود وهربوا إليها من الحبس وطلبوها وقد وعد الله
أن يؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم فلا تشتغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم
وانظر لنفسك ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يعظون مثلا فليس في النهي عنه إلا
امتناع بعضهم وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا
واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر وتخيله للعوام
أنه يريد به وجه الله وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وعظ
نفسك فإن قال لست أقدر على نفسي فنقول اشتغل وجاهد وعظ لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك
الناس إذ لا قائم به غيره ولو واظب عليه وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين
الجميع أحب إلينا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء القوم ونقول لعل هذا هو المشار إليه بقول
النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم ثم الواعظ هو الذي يرغب في
الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته فأما ما أحدثه الوعاظ في هذا العصر من الكلمات
المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف
للمسلمين بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي فيجب إخلاء البلاد منهم فإنهم نواب الدجال
وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول
ولا يقصد غيره وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد في حق علماء السوء كفاية ولقد
قال عيسى عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون

وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى وما
يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب
وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم
يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته
بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم
أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأي الناس أخسر
منكم ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كأنكم تدعون
أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع
السراج فوق ظهره وجوفه مظلم كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم
منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام يوشك أن تقلعكم
الدنيا عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم
فيسلمكم إلى الملك الديان عراة حفاة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء
أعمالكم وروى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين
الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا
الدين للدنيا فهم في الدنيا عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون فإن قلت فهذه الآفات
ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه
لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها وقال صلى الله عليه وسلم أيما
داع إلى هدى فاتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ونحو ذلك كثير فينبغي أن يقال
للعالم اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خطر له الرياء في الصلاة لا تترك
العمل ولكن تمم العمل وجاهد في الإخلاص لتعلم أن فضل العلم كثير وشرفه عظيم كفضل
الخلافة والإمارة ولا نقول لأحد من الناس اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما
الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولا نقول له أيضا
اتركه ما دام يجد في نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء فأما إذا لم يحركه إلا الرياء